علم الاجتماع مع الأدب والثورة

بقلم حسين أحمد خليل

لا ننوي هنا ان نقارن بين علم الاجتماع والنقد الادبي من ناحية وبين علم الاجتماع والسياسة من ناحية اخرى . ان علم الاجتماع يدعي الشمول كالتاريخ ، فهو يميل الى استيعاب كل الظواهر الاجتماعية واخضاعها للتحليل والدرس ، بغية الوصول الى اكتشاف قوانين عامة او على الاقل بغية تعليل ظهورها . وعلم الاجتماع لا يستهدف كشف الغموض الاجتماعي مسخرا اكتشافاته لخدمة بعض الجهات الخاصة . ان علم الاجتماع اذ يكتشف ـ ويعمل على كشف حقيقة المجتمع ـ انما يبغي بث بذور الوعي والتربية الانسانية وهو لا يتوانى كعلم عن التضامن مع العلوم الانسانية الاخرى واضعا اكتشافاته تحت تصرف الانسانية عامة . وقد تناست اوروبا الرأسمالية اهمية المجتمع ككل ولم تتمكن من كشف القوى التي تحرك المجتمع ، الى ان برزت النظرية الماركسية فاعطت نظرية صحيحة معللة التطور بارتكازها الى فلسفة تاريخية عميقة . ان علم الاجتماع يصير شيئا فشيئا اكثر اهمية من ذي قبل : بعد ان تاكد علماء الاقتصاد من ان اسباب التخلف او التقدم ليست اقتصادية فحسب بل ثقافية وفكرية وحضارية . وعلم الاجتماع اذ يدرس الثقافة يرى ان المجتمع هو الثقافة ـ والثقافة هي عودة الى الماضي ـ لذا فالمجتمع الانساني له تاريخه وهو تاريخ بحد ذاته ، اما التكنيك فهو امتداد صوب الافق صوب المستقبل . والمجتمع البشري في مرحلته الراهنة في حاجة ماسة الى محاولات علمية يقوم بها علماء الاجتماع البحاثون لاضاءة الطريق الصعبة حيث اختيار المفارق بات معقدا ومدهشا .

ان علم الاجتماع يتناول الادب والفن كاعمال حضارية . وعالم الاجتماع اذ يتناول الادب فهو يختلف عن الناقد الادبي منهجا واهدافا. فمنهج الناقد الادبي هو تحليل المحتوى اي تحليل النصوص واظهار الناحية الجيدة والناحية السيئة في العمل . فالنقد الكلاسيكي لم يتطور كثيرا في عصرنا هذا ، فنحن لا نزال نعيش على تراث قديم ـ جديد . فالغاية النقدية هي تقديم العمل الادبي وعرضه ، لذا نرى ان النقد الادبي سلبي ـ بمعنى انه لا يخلق شيئا جديدا ـ لكنه ايجابي بمعنى انه يحدد معالم الطريق ويضع حدودا لاخطاء ارتكبت فيجنب القارىء نتائجها وينبه الكاتب اليها . اما عالم الاجتماع الذي يتناول العمل الادبي فهو يعتبره جزءا من النظام الادبي الاجتماعي فيحاول ان يرى كيف ولد هذا العمل وما هي علاقة النظام الادبي الذي انتج هذا العمل مع الانظمة الاخرى . ومن الملاحظ ان علم الاجتماع الادبي متاخر جدا في هذا المجال لاسباب كثيرة . ان علم الاجتماع قد ظهر كعلم في مطلع القرن العشرين وكنظرية فلسفية في التاسع عشر . ثم تخوف علماء الاجتماع وتخبطهم النظري الذي يعانيه كل علم يريد ان يكون فعلا علما حقيقيا موضوعيا وثاقبا . ان تردد علماء الاجتماع ناتج عن غياب التراث في هذه المادة وعن سيطرة النقد الادبي والمغالاة في اعتبار العمل الادبي كلغز او سر او سحر . وكل هذه الاعتبارات هي شعرية ليس لها اي حقيقة علمية . واننا نورد النظرية الرومانسية في الايحاء او « سر الخلق » كمثل على ذلك . ونضيف الى اسباب تأخر علم الاجتماع في دراسة الادب فشل المحاولات العلمية في هذا المجال . الا ان النظرية الماركسية قد شجعت كثيرا هذا القطاع العلمي ، وذلك لانها تعتبر ان الفكر البشري وكل انتاجاته على علاقة حقيقية مع الاطر الاجتماعية .

وقد ظهر حديثا في فرنسا محاولة علمية بعنوان « من اجل علم اجتماع روائي » والباحث هو لوسيان غولدمان . وهذا ما سنتناوله بعنوان « مع الادب » .

وعلم الاجتماع يتجاوز حدود المجتمع الراكد ليدرس المجتمع في تطوره ـ في حركته وتقدمه وثورته . وقد عرف العالم الثالث وافريقيا خاصة سلسلة من الثورات بعد الاستقلال او قبله . هذه الظاهرة الثورية جذبت العديد من علماء الاجتماع والاثنولوجيين والانثروبولوجيين لدراسة شتى خصائص المجتمع الافريقي واستعداده للتطور والتغير والتحول ـ استعداده الثوري. وقد ظهرت لجان زيجلر « ZIEGLER » دراسة تحاول علميا فهم وشرح وتعليل ظاهرة الثورة في افريقيا . والكتاب يحتوي على مقدمة نظرية واسعة يعقبها ثلاث دراسات حول: الكونغو ليوبولدفيل وغانا ومصر . ونحن لن نتناول الكتاب في كل اجزائه ، وسنكتفي بدراسة المقدمة النظرية ومناقشتها نظريا ، ثم نتناول المظاهر الثورية في مصر (١٩٥٢ ـ ١٩٦٢) . واختيارنا هذا غير قائم على تعصب قومي ، فهذا ليس من خصائص العالم او الثوري ، ولا على تجاهل اهمية هذين البلدين المذكورين ، بل لضيق مجال البحث ، ولان الكتاب كبير ، ولان مشاكل غانا والكونغو لا تختلف كثيرا عن مشاكل مصر . واخيرا يعود اختياري هذا لضرورة فهمنا فهما صحيحا لحقيقة الثورة العربية في مصر . ومن المهم ان نرى كيف ينظر عالم اجنبي لمجتمعنا ـ وهذا لا يعني انه حيادي كما يجب وهذا ما سنراه في القسم الثاني من هذه الدراسة بعنوان مع الثورة. وكتاب جان زيجلر بعنوان « علم اجتماع افريقيا الجديدة » .

١ ـ مع الادب

ان كتاب لوسيان غولدمان الصادر عن دار N. R. F. بعنوان « Pour une Sociologie du Roman » « من اجل علم اجتماع روائي » هو خلاصة لنتائج ابحاث اجريت خلال سنتين في مركز علم الاجتماع الادبي » وفي « معهد جامعة بروكسل لعلم الاجتماع » اما القسم الرابع من الكتاب فقد حرره غولدمان لحساب المجلة الاميركية « Moderne Language Notes » .

ودراسة عالم الاجتماع لشكل الرواية قد تسمح بتجديد علم الاجتماع الثقافي والنقد الادبي . فحيث يصير علم الاجتماع الادبي مجال ابحاث جماعية يتمكن العدد الاكبر من البحاثين في الجامعات والمعاهد ومراكز الابحاث العلمية ان يقفوا على حقيقة الادب وعلى اهم مشاكله . وعلم الاجتماع الادبي لا يتوانى عن استخدام مناهج النقد الحديثة مثل التركيبية الديناميكية والتحليل النفسي وحتى التركيبية غير الديناميكية . اما الدراسات التقليدية من تجريبية ووضعية وبسيكولوجية فهي تسيطر على حياة الجامعات في المجال الكمي على الاقل . وغولدمان يتبنى نظرية هيجل في دراسته حيث ان « الحقيقي هو الكلي » وهذا يعني في لغة علم الاجتماع ان الخلاقين الحقيقيين والفعليين هم جماعات ـ اي الافراد المجتمعون وليس الافراد المنعزلين . لذا فعالم الاجتماع مطالب بان يأخذ بعين الاعتبار دور الكاتب ايضا .

ويبدأ كتاب غولدمان بطرح المشاكل العامة التي تعترض سبيل عالم الاجتماع الذي يغامر في دراسة الرواية . فالرواية هي صنف

ادبي . الرواية ليست الادب ، كذلك الشعر . الادب نظام . والرواية كصنف لها عدة نظريات تحددها ـ وكل تحديد تقييد ـ والرواية تحتاج الى حرية ، الا انه لا بد من التعريف بالعمل الروائي مع تحفظ بالغ وهذا رأينا الشخصي وكذلك هو الامر فيما يخص الشعر وخاصة القصيدة . غولدمان ينطلق من نظرية لوكاتش « LUCAKS » « نظرية الرواية » ومن نظرية جيرارد في كتابه « الكذبة الرومانسية والحقيقة الروائية » . وانطلاق غولدمان النظري هذا ادى به الى صياغة عدة افتراضات تتيح له العمل والبحث النظري . وهذه الافتراضات تخص:

التشابه القائم بين بنية الرواية الكلاسيكية وبين بنية التبادلفي الاقتصاد الليبيرالي ووجود بعض التشابه بين تطور هاتين الظاهرتين فيما بعد .

فما هي الخطوط العريضة التي تميز بنية الرواية حسب لوكاتش ؟ ان شكل الرواية التي يدرسها لوكاتش يتميز بوجود بطل روائي عرفه لوكاتش بالبطل المشبوه او المزدوج . فالرواية هي البحث عن قيمحقيقية في عالم منحط . والقيم الحقيقية ليست القيم التي يعتبرها الناقد او القارىء كذلك ، بل هي القيم التي تنظم عالم البطل حسب طريقة ضمنية . والرواية كصنف ملحمي تتميز بانفصال البطل عن العالم . والانقطاع الجذري عن العالم ادى الى ظهور التراجيديا والشعر الغنائي . اما الانقطاع العادي فقد ادى الى ظهور الملحمة والقصة . والرواية تتراوح بين هاتين الدرجتين من الانقطاع ، لذا فهي ذاتطبيعة ديالكتيكية . فالبطل « الشيطاني » في الرواية هو معتوه او مجرم: انه شخص منقطع عن العالم . وقد حاول لوكاتش ان ينظم اصناف الرواية منطلقا من علاقة البطل بالعالم فوصل الى ما يلي : لقد وجد ثلاثةنماذج للرواية الغربية في القرن التاسع عشر ، يضاف اليها نموذج رابع ظهر في ١٩٢٠ مع روايات تولستوي التي اتجهت نحو الملحمة . والتكم نماذج الرواية :

١ ـ الرواية « المثالية التجريدية » : مثل دون كيشوت او الاحمر والاسود .

٢ ـ الرواية « البسيكولوجية » : مثل اوبلوموف و « التربية العاطفية » .

٣ ـ الرواية « التربوية » : مثل ويلهم ميستر لغوته .

اما المنطلق النظري الثاني الذي يتغذى منه لوسيان غولدمان فهو كتاب رينه جيرارد المذكور . وجيرارد يلتقي بعد اربعين سنة تفصله عن لوكاتش ، مع معظم الاراء السابقة . وجيرارد يستعين بلغة هيدجر الا انه يجددها ويعطيها محتوى جديدا في اغلب الاحيان . وجيرارد يستخدم مبدأ ثنائية « الكياني » و « الميتافيزيائي » التي تتوافق تتابعيا مع « الحقيقي » و « غير الحقيقي » . اما طريقته في تصنيفالروايات فقائمة على ان فكرة «انحطاط العالم الروائي» هي نتيجة شر كياني . وان انحطاط عالم الرواية وتقدم قوى الشر الكياني يوسعان الشقة بين الرغبة الميتافيزيائية وبين البحث الحقيقي ، البحث عن « السمو العامودي » .

ونجد في مؤلف جيرارد امثلة عن التوسط : مثلا العاشق الذي يتوسط بين الزوج ورغبته في المرأة مثلا:«الزوج الابدي» لدوستيوفسكي. ولكننا لا نعتقد ان التوسط هذا يشكل نوعا خاصا من الرواية . اما تصنيفه الروائي فقائم على وجود شكلين للتوسط : شكل داخلي واخر خارجي . ويتبنى جيرارد فكرة تقدم الانحطاط . وهناك نقطة رئيسية تفصل لوكاتش وجيرارد . هما متفقان على ان الروائي يتخطى او ان عليه ان يتخطى وعي ابطاله وان هذا التخطي الاستاتيكي هو في اساس الخلق الروائي . ويختلفان حول طبيعة هذا التخطي ، وفي هذا المجال يتبنى غولدمان وضعية لوكاتش ويرفض وضعية جيرارد . فبنظر جيرارد،يهجر الروائي عالم الانحطاط بينما يكتب مؤلفه ، ليجد الحقيقة والسمو العامودي . وان موقفا كهذا مناقض للاستاتيك (او علم الجمال) اللوكاتشي الذي يؤكد ان كل « شكل ادبي » وكل شكل فني عظيمبصورة عامة هو جزء من حاجتنا للتعبير عن « محتوى جوهري » . ويعكس جيرارد يبين لنا لوكاتش ان الرواية كعمل خيالي وخلق لعالم يسيره الانحطاط « الشامل » لا تسمح للروائي ان يتخطى هذه الحالة،والتخطي يبقى اذن انحطاطيا مجردا وغير معاش كواقع محسوس .

فمشكلة الرواية هي ان نجعل ما هو مجرد في وعي الروائي وما هو اخلاقي المادة الجوهرية للعمل الفني . فالرواية هي النوع الادبيالوحيد حيث تصير اخلاقية الروائي مشكلة العمل الاستاتيكي ـ لوكاتش ـ . لقد كانت الرواية في القسم الاول من تاريخها تدوينا للحياة الشخصية وتأريخا اجتماعيا . وقد حاول النقاد ان يبرهنوا أن الرواية الاجتماعية تعكس نسبيا حالة المجتمع التاريخية . الا ان الرواية قد تحولت منذ كافكا ويلاحظ ان هذا التحول على علاقة مع تحاليل ماركس لظاهرة الاسترقاق البشري . ويرى علماء الاجتماع الجديون في ذلك مشكلة اكثر منه شرحا علميا . والمشكلة التي يثيرها عالم الاجتماع تتبلور كما يلي : لماذا ظهر هذا التحليل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؟ ان علم الاجتماع الروائي هو دراسة علاقة الشكل الروائي مع بنية الوسط الاجتماعي . هناك توافق حقيقي بين شكل الرواية الادبي وبين علاقة الناس اليومية مع الاشياء ، وعلاقة الناس فيما بينهم ، في مجتمع ينتج من اجل السوق ـ اي في المجتمع الرأسمالي . ولو قبلنا الوهم الرومانسي ـ اي القول بالانقطاع الكلي عن العالم ، وبانفصال الجوهر عن المظهر وانفصال الحياة الداخلية عن الحياة الخارجية ، فاننا لا نستطيع القول بانفصال كهذا حينما تتحول الحياة الاجتماعية الى كتاب ولوحة وتعليم وقطعة موسيقية ... ان هذه الاشكال التعبيرية تعود فتحاول أن تخلق علاقة ـ او ان تجسدها ـ . وخلق هذه العلاقةيفترض البنى الاجتماعية والثقافية والتكنيكية والسياسية والاقتصادية ويفترض الافراد . وخلق العلاقة يفترض التبادل . وهكذا تتوافق بنى النوع الروائي مع بنى التبادل الاجتماعي لدرجة اننا نستطيع ان نتكلم عن بنية واحدة تظهر في مجالين مختلفين . وهذا يعني ان الرواية على علاقة عميقة بتركيب الواقع الانساني . لكن ما هي نوعية هذه العلاقة ؟ ان معظم علماء الاجتماع الادبي يقيمون العلاقة بين الاعمال الادبية الاكثر بروزا وبين الوعي الجماعي . وحول هذه النقطة لا يختلف موقفالماركسية التقليدية عن مجموع اعمال علم الاجتماع الادبية غير الماركسية . الا ان الموقف الماركسي يضيف اليها اربع افكار جديدة .

ـ الفكرة الاولى : ان العمل الادبي هو نتيجة التوصل الى مستوى مرتفع من ترابط الميول الخاصة بوعي هذه الجماعة او تلك . هذا الوعي يجب اعتباره كحقيقية ديناميكية متجهة صوب حالة توازن . والماركسية ترى أن « الوعي الممكن » يسمح لنا وحده بفهم « الوعي الجماعي الحقيقي » .

ـ الفكرة الثانية : ان العلاقة بين الفكرة الجماعية وبين اعظم الابتكارات الفردية قائمة على ترابط البنى العميق وعلى توافقها .

ـ الفكرة الثالثة : ان العمل المعبر عن فكرة جماعة ما قد يكون من ابتكار فرد ذي علاقات ضئيلة مع هذه الجماعة .

ـ الفكرة الرابعة : ان الوعي الجماعي ليس بحقيقة اولية ولا بحقيقة تامة مستقلة . ان هذا الوعي ينشأ ضمنيا في السلوك العام للافراد المساهمين في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ...

اما الماركسية القديمة التي كانت ترى في البروليتاريا الجماعة الاجتماعية الوحيدة القادرة على خلق ثقافة جديدة ، لانها لم تكن خاضعة للمجتمع المستعبد ، فقد كانت منطلقة من علم الاجتماع التقليدي الذي يرى ان كل ابتكار حقيقي ومهم لا ينبع الا من علاقة جوهرية بين بنية الكاتب العقلية وبين بنية الجماعة البشرية . ويؤكد كارل ماركس ان الوعي الجماعي يفقد في المجتمع الرأسمالي كل حقيقته الفعالة ويصبر شيئا فشيئا عاكسا للحياة الاقتصادية الى ان يتلاشى اخيرا .

والسؤال الرئيسي الذي يطرحه غولدمان هو التالي : كيف ترتبط البنى الاقتصادية بالظواهر الادبية في مجتمع يتم فيه هذا الترابط منعزلا عن الوعي الجماعي ؟ وقد صاغ غولدمان افتراضه الرئيسيالمرتكز على اربع نقاط وهي :

أ ـ لقد ولدت في فكر اعضاء المجتمع البورجوازي ، ابتداء من سلوكهم الاقتصادي ومن وجود « قيمة التبادل » « بابة التوسط » كشكل رئيسي من اشكال الفكر ، وتصير القيمة التوسطية قيمة مطلقة بفضل انتشار الوعي الخاطىء كليا .

ب ـ ما زال في المجتمع البورجوازي عدد من الافراد المزدوجين ، من هؤلاء الافراد : نعني المبدعين ، الكتاب ، الفنانين ، الفلاسفة ، علماء اللاهوت ، ورجال الاعمال ...

ج ـ لا يمكن اعتبار اي عمل ادبي مهم كتعبير عن تجربة فردية فقط ...

د ـ ان وجود قيم (كالحرية والمساواة والملكية في فرنسا) ادى الى ولادة بابة جديدة من سرد الحياة الفردية ، هذه البابة صارت العنصر البناء في الرواية التي اتخذت شكل الفرد المشبوه او المزدوج اعتبارا من النقاط التالية : التجربة الشخصية ، التناقض الداخلي بين الفردية كقيمة عالمية انتجها المجتمع البورجوازي وبين حدود امكانيات الافراد . وقد كانت الفردية متجهة نحو الاندثار ، بعد تحول الحياة الاقتصادية واستبدال اقتصاد المزاحمة الحرة باقتصاد الكارتل والاحتكارات . وازاء هذا التحول الاقتصادي برز التحول الروائي شكلا، ولعل اهم ظواهر التحول هو اختفاء الشخص الفردي « البطل » . ولهذا التحول مرحلتان : المرحلة الاولى : أن انخفاض اهمية الفرد المنعزل ادى الى استبدال « السيرة الشخصية » كمحتوى للعمل الروائي بقيم جديدة ولدت من ايديولوجيات مختلفة . (مثل :المؤسسات، العائلة ، الثورة ...) . المرحلة الثانية : تبدأ بعد كافكا تقريبا وتستمر حتى ظهور الرواية الجديدة المعاصرة التي لم تكتمل بعد . وتتميز هذه المرحلة بترك فكرة استبدال البطل المشبوه والسيرة الذاتية بأي واقع اخر وبجهد خاص لكتابة رواية عن « غياب الموضوع » وعن عدم وجود اي بحث عن غاية . وهكذا كانت الغاية من هذه الحركة ابعاد عنصرين رئيسيين من عناصر الرواية : بسيكولوجيا البطل المشبوه وتاريخ البحث الشيطاني . من هذين العنصرين يمكن خلق علم اجتماع مسرح اللامعقول (بيكيت ، يونسكو وادامو ف اثناء فترة فقط) ويمكن استخلاص بعض خصائص الرسم غير التصويري . هذا الشكل الروائي هو انتقادي وتعارضي . هو من اشكال مقاومة المجتمع البورجوازي الذي يحاول ان يظهر الى الوجود . فعمل بلزاك يعبر تعبيرا صحيحا عن قيم العالم البورجوازي : الفردية ، التعطش للقوة ، المال ، الحب الاباحي المنتصر على قيم المجتمع الاقطاعي كانكار الذات والشفقة والحب ...

ويزعم لوسيان غولدمان انه لا يوجد ابتكار أدبي وفني الا حيث يبرز الذوق لتجاوز الفرد والبحث عن قيم فردية حيث « يعبر الانسان الانسان » . وهذا يعني ان الانسان لا يصير حقيقيا الا اذا احس انه جزء من الكل الذي لا يكتمل ، هذا الكل منفتح وصيروري . ويرى غولدمان أن البورجوازية قد خلقت اول شكل من اشكال الوعي غير الاستاتيكي . فالميزة الرئيسية للفكر البورجوازي هي العقلانية التي تنكر لوجود الفن . وفي المجتمع المرتبط بالسوق (اي المجتمع الرأسمالي) يصير الفنان انسانا مشبوها ، مزدوجا وهذا يعني انه انتقادي وتعارضي . وهكذا نلاحظ أن غولدمان كعالم اجتماع يعود الى التاريخ ليربطنا من خلاله بالحاضر . فصياغته لاهم المشاكل الادبية وعلاقتها بالاقتصاد واضحة . وهو ينطلق من النظرية الماركسية ـ وهو لا يخفي ذلك ـ . يتساءل القارىء هل تشكل هذه الافكار التي لخصناها بسرعة نظاما واحدا يسمح لنا ان نرى من خلاله ؟ ان هذا النظام الفكري الذي حاول غولدمان اقامته متماسك تاريخيا ، ومن حق عالم الاجتماع ان يختار بعض نقاط كمنطلقات رئيسية لابحاثه وان يترك نقاطا اخرى لباحثين آخرين . فمن حق العقل ان يطرح الاسئلة التي تهمه . وينظر غولدمان ـ وهذه هي النظرة الماركسية ـ ان ثمة علاقة قائمة بين الاقتصاد والادب . ولو عدنا الى ماركس في « نقد الاقتصاد السياسي » صفحة ٢٥٥ ـ ٢٥٧ منشورات شليشر عام ١٨٩٩ وجدنا ما يلي : « ان علينا ان نبحث في الاقتصاد السياسي عن بنية المجتمع المدني . وفي الانتاج الاجتماعي يخلق الافراد علاقات مستقلة عن ارادتهم ، ضرورية ومحددة. ان علاقات الانتاج هذه تتوافق مع درجة ما من نمو قواهم الانتاجية المادية . ان مجموع علاقات الانتاج هذه يشكل بنية المجتمع الاقتصادية، القاعدة الحقيقية التي ترتفع فوقها البنية الفوقية القضائية والسياسية والتي تستجيب لها اشكال الوعي المحددة اجتماعيا .

ان طريقة الانتاج في الحياة المادية تحدد ، بصورة عامة ،المخاصة الاجتماعية والسياسية والفكرية في الحياة . ليس وعي الانسان هو الذي يحدد وجوده ، ان وجوده الاجتماعي هو الذي يحدد وعيه » .وهذه الفكرة الاخيرة هي المنطلق الاساسي كما يبدو لنا لغولدمان . ونشير اننا ترجمنا هذا المقطع من ماركس بشيء من التصرف.. ان الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي . ولولا العمال ـ الذين ينتجون القيم الاجتماعية الحقيقية لما كان للرواية اي معنى أو حقيقة . اذن الادب هو عمل جماعي ـ حتى القصيدة ـ وان كان المبتكر فردا لا جماعة .

***

طبعا نحن لا ننكر حق الباحث في الانطلاق من نقطة خاصة حيث يكون هناك نقاط كثيرة لا تتساوى من حيث الاهمية ونحن نوافق الموقف الماركسي حول ضرورة اخذ الاقتصاد بعين الاعتبار ، ومن المهم جدا ان نبحث عن التحول الاجتماعي الناجم عن التطور الاقتصادي . اذن غولدمان على حق في انطلاقه هذا . الا اننا نوجه اليه النقد التالي : لم يوضح كثيرا الموقف الماركسي ، ولا كيفية ولادته في القرن التاسع عشر ، واذا رد علينا بان غاية العمل هذا هي دراسة الرواية بطريقة علمية اجتماعية، اجبنا بأن الكاتب قد اختار منطلقه فلا بد من توضيحة للغاية . والنقد الثاني الذي نوجهه له هو انه نسي ان علم الاجتماع مهما حاول لا يستطيع ان ينكر البسيكولوجيا والعلوم الانسانية الاخرى ، وان على علم الاجتماع ان ينفتح على علم النفس بعد ان صار هذان العلمان في مرحلة نضج نسبية تسمح لهما بالتعاون ، ولعل انفتاح العلوم الانسانية على بعضها يسهل لنا كثيرا فهم الرواية والادب او اي ظاهرة اجتماعية اخرى ، اذ ان الحدث الاجتماعي هو كلي وشامل ـ موس ـ وهو متعدد الجوانب (غيرفيتش) . والنقد الثالث : هو ان لوسيان غولدمان يعمد الى

صدر حديثا :

اخر رواية كتبها الاديب الكبير

كولن ويلسون

ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق

الشك

رواية عاطفية ، وفلسفية ، وبوليسية ... في وقت واحد ! وهي كذلك فضح لاساليب اليهود الاجرامية وتحليل لتأثير المخدرات !!

من هنا كان غنى رواية « الشك » ، وما تثيره لدى القارىء من شوق وفضول ... وليس ذلك غريبا على واحد من اكبر مفكري هذا العصر ...

منشورات دار الاداب ٥٠٠ ق.ل

تحليل روايات اندره مالرو . والواضح ان الغاية من العمل هو دراسة الادب الفرنسي ككل . فلماذا اختار مالرو بالذات ؟ ونحن هنا لا نكن اي عداء منهجي لمالرو ، ولكن من حقنا ان نسأل وخاصة ان الادب الفرنسي ـ في الرواية خاصة ـ قد تمثل بكتاب كبار : اندره جيد ، ستانت اكزيبوري ، مالرو ، كامو ، سارتر وروب غرييه ما هي المميزات الخاصة التي دفعت غولدمان الى البدء بمالرو بالذات . فاذن من حق القارىء ان يعرف لماذا اختار هذا الكاتب بالذات وليس سواه ؟ . وغولدمان لا يعطي اي فكرة عن سبب اختياره هذا .

***

ثم ان غولدمان يعمد الى تحليل روايات مالرو جميعا ، معتمدا كما يظهر لنا مظهر الناقد الادبي ، اي تحليل النصوص واستنباطها ومنهجتها ـ سائرا نحو خلق نظام فكري يبرر النظام النظري الذي صاغه في المقدمة او لا يبرره في بعض النقاط . ويسمي هذا الفصل من الدراسة : « مدخل الى دراسة تركيبية لروايات مالرو » ونحن لا نرى ان ثمة فائدة كبيرة في الحديث عن تحليل غولدمان لهذه الروايات اذ لا شيء يضمن لنا ان القارىء العربي على اطلاع كلي على روايات مالرو . وهذا لا يعني اننا نتجاهل قيمة عمل غولدمان التحليلي هذا ، ولا ننتكر للاحظاته العميقة المهمة والواضحة . ونلاحظ ان غولدمان قد حاول في تحليله لروايات مالرو ان يتحاشى اصدار احكام مرتجلة او مبرهنة عن اراء ذاتية غير علمية ـ اراء فنية او سياسية منهجية او ايديولوجية ـ ، الا ان تحاشيها بصورة تامة امر غير ممكن . وان الدراسة الراهنة ليست الا خطوة اولى ، موقتة وجزئية ، في اطار بحث عام اوسع حول الفكرة والمجتمع والادب الفرنسي بين الحربين . لذا لا يمكننا ان نصدر اي حكم موضوعي على ما هو زمنيا غير محدد وما هو في طريقه الى الوجود. هذا العمل برعم ، بغي عليه ان يزهر وان يثمر .

وقد ظهرت دراسة غولدمان هذه حينما نشر سارتر في كتابه «الكائن والعدم» ص ٦١٥ ـ ٦٣٨ رأيا خاصا ضد هيدجر ومالرو قريبا من رأي غولدمان الناتج عن تحليله لروايتي مالرو « الغزاة » و « النهج الملكي ». فبنظر سارتر يحدد الانسان بالمشروع الرئيسي والمشاريع الثانوية «وهنا نجد الفكرة الفلسفية التي اوردها جان لاكروا في كتابه « الفشل : الانسان هو مشروع معرض للفشل ـ والفشل الحقيقي هو الموت ـ او العدم » . فالموت عند سارتر ليس امكانا فرديا او شخصيا بل هو من معطيات الخارج . فالموت محدد ، لذا فهو غير خاضع لاختيارنا . انه كالشمس والاشياء الطبيعية . الموت هو غير المنتظر .

***

بعد ذلك يقدم غولدمان فصلا جديدا بعنوان « الرواية الجديدة والواقع » . وهذا الفصل لا علاقة له بالابحاث السابقة ولا بوجهة نظر عالم الاجتماع . فهو بين موقف عالم الاجتماع وبين موقف الكاتب . يتناول غولدمان في هذا الفصل كاتبين جديدين : الان روب ـ غرييه وناتالي ساروت . ويجمع هذين الكاتبين نقطة مشتركة ـ لعلها نقطة انطلاق اكثر مما هي نقطة التقاء ـ : الواقعية الادبية . ويرى معظم النقاد وقسم كبير من الجمهور في هذه الواقعية الادبية مجموعة اختبارات شكلية خالصة ومحاولة في الهرب خارج الواقع الاجتماعي . وهذان الكاتبان هما من اهم الممثلين لهذه المدرسة ، ويؤكدان لنا عكس هذا الرأي: اذ ان مهمة الواقعية الادبية هي الالمام بواقع عصرنا .فروب ـ غرييه لا يعتقد بوجود واقع ثابت مفروض ابديا في المجال الانساني . ان جوهر الواقع الانساني ديناميكي ، لذا فهو خاضع للتغير على ممر العصور . ويشترك كل الافراد في تغيير الواقع ، لذا فنحن لا نؤمن بعلو الكتاب وتفوقهم على الاخرين . الا ان التحول الواقعي يثير مشكلة التحولات الاجتماعية التي تخلق احتياجا لشكل روائي جديد . فما هي اسباب هذه التحولات الاجتماعية ؟ هل هي اقتصادية وثقافية وتكنيكية؟ نترك للابحاث الحالية في مجال علم الاجتماع وخاصة التركيبية ان تجيب على هذا السؤال . وفي المجال الادبي يبدو ان السبب الرئيسي هو الوحدة التركيبية الشخص ـ الاغراض التي تحولت وادت الى تلاشي الشخص لصالح استقلال الاغراض ـ او الاشياء ـ . ان الشكل الروائي متصل مباشرة بالبنى الاقتصادية ـ بنى التبادل والانتاج من اجل السوق . وهنا تبرز اهمية النظرية الماركسية حول المجتمع الرأسمالي حيث تسيطر « وثنية السلع » وتأليه المادة وعبادتها مما يؤدي الى سحق الانسان واستعباده . فهذه كما يظهر احدى نتائج المجتمع الرأسمالي التي اشار اليها ماركس في معظم مؤلفاته . فهل هناك علاقات وتوافقات بين تاريخ بنى الاستعباد وتاريخ البنى الروائية؟ وحتى نجيب لا بد من تعريف اربعة عناصر رئيسية : الاستعباد كتعبير بسيكولوجي . الاقتصاد الليبيرالي . نمو الكارتل والاحتكار والرأسمال في القرن العشرين والانتقال من الرأسمالية الى الاستعمار . واخيرا يجب تعريف تدخل الدولة في تنظيم الاقتصاد . فماذا تعني كلمة مثل « Réification » ؟ ان ماركس يستخدمها في كتابه « الرأسمال » بمعنى « عبادة البضاعة » . وهذه العبادة التي تؤدي الى استعباد الانسان ، ناتجة عن غياب المنظمة القادرة في المجتمع الرأسمالي الليبيرالي على تنظيم الانتاج والتوزيع بطريقة واعية داخل وحدة اجتماعية محدودة. وهكذا يحول المجتمع الليبيرالي كل القيم الفردية الى امتلاك لاشياء ولا يعتبر كحقيقة انسانية جوهرية سوى الفرد المنعزل عن المجموع . وهكذا تتحقق كما ترى نظرية ماركس علميا .

وقد اوضح روب ـ غرييه : ان الرواية الكلاسيكية تعطي اهمية كبيرة للاشياء الا ان هذه الاشياء تستقي اهميتها من علاقات الافراد بها . وهكذا نستطيع ان نميز بين مرحلتين في تاريخ بنى المجتمع الغربي الرأسمالي . المرحلة الاولى وهي المرحلة الاستعمارية الممتدة من ١٩١٢ الى ١٩٤٥ وتمتاز بتلاشي الفرد كحقيقة جوهرية وباستقلال الاشياء . والمرحلة الثانية هي المرحلة الرأسمالية بتنظيمها المعاصر ، وتمتاز باقامة عالم الاشياء وتحويله الى عالم مستقل ببناه الخاصة ، التي تسمح في الحقيقة ، وحدها للانسان ان يعبر عن ذاته . انهم يفصلون بذلك الانسان عن مجال تجربته الكيانية ، عن وسائل الانتاج والالات والمصانع ... فيتيسر لهم استعباده بذلك .

وتختلف ناتالي سارروت عن روب غرييه حول غاية البحث الروائي فقط . فهذا « الاسترقاق بالمعنى الماركسي » هو موضوع رواية روب غرييه الثالثة : الغيرة . حيث يتحول الافراد الى مشاهدين ، الى كائنات سلبية ، ويتحول الافراد الى اشياء حيث يصير من الصعب التمييز بين الافراد والاشياء . فما هو اكثر اهمية هو بنية العالم الجديد حيث لا يستطيع البشر ان يسيطروا على الاشياء ، وحيث تتلاشى مشاعرنا طالما اننا لا نتمرد على عبودية الاشياء. وينشق روب غرييه عن الماركسيين. فيوضح : ان الماركسيين هم اصحاب مواقف . اما انا فانني انسان واقعي وموضوعي . وهذا لا يقنعنا ابدا . فالانسان موقفي مهما فعل . فحينما يختار روب غرييه الواقع والموضوعية ، نسأله لماذا فعل ذلك؟ ما الذي دفعه لمثل هذا الاختيار ؟ ومهما تكن اجوبته فاننا نستنتج انه اتخذ موقفا شاء ام ابى . وهو يلتقي مع الماركسية رغما عنه حول ضرورة اتخاذ المواقف . والا فسيبطل الكاتب ان يصير كاتبا اذ انه لا يستطيع ان يبقى « ذا عين باردة » . ان الاختيار يفترض الحرية والحرية تفترض انظمة فلسفية وفكرية وتقييمية . ان اختار هو ان اقيم والتقييم يعني انني اتخذ موقفا ما حسب وعي . ولا يهم هنا ان يكون الموقف بمعناه السارتري او بمعناه الماركسي . ويقصد روب غرييه انه بعكس الفلسفة الكلاسيكية التي تحلل موضوعا ما وتصدر حكما عليه ، سيلجأ الى خلق عالم متخيل ، دون ان يحكم او يدين او يستحسن . ان مهمته هي تسجيل الوجود كواقع جوهري . يحق لنا ان نتساءل هل هذا ممكن ؟ ونحن نجيب هذا غير ممكن لا علميا ولا ادبيا . ولنأخذ مثلا في الادب : ان كتابات كافكا وسارتر في الغثيان ... هي كتب موقفية ازاء اللامعقول ... الكاتب لا يستطيع ان يصير الة .. الكتابة تجربة وتفترض المشاركة والحساسية . ولعل روب غرييه يناقض نفسه : ففي كتابه « المتاهة » يسيطر جو من الكآبة . هذه الكآبة تحتاج الى شعور ووعي بشري . والوعي يفترض التفكير بشيء ما ، والتفكير سواء ارتبط بالواقع او

باللاواقع ، يفترض اتخاذ موقف ما . ونحن نسأل لماذا اختار الكآبة دون سواها في كتابه هذا ؟ ثمة مشاكل كثيرة للمجتمع الصناعي الرأسمالي الذي يكتب عنه غرييه : الاضرابات ، مشاكل التعليم ، الحريات الحقيقية ... لماذا اختار هذه الظاهرة بالذات ؟ ان اختياره هذا نابع عن موقفية مقصودة . واما ان يصف الشعور بالكآبة بصدق فهذا شيء اخر ، والصدق نسبي وصعب . فمثلا في كتابه الذي صار فيلما « السنة الاخيرة في مارينباد » يبدو للكآبة والقلق وجه اخر : الامل . اليس هذا حكما على الواقع واختيارا موقفيا ؟ أن مشكلة الوجود البشري الصحيح هي مشكلة الزمن وطبيعته : الزمن الفردي والتاريخي او النفسي والاجتماعي . وهذا ما اكتشفه علماء الاجتماع منذ عهد بعيد حينما اكدوا: ان الحياة العاطفية والفكرية لها معناها الموضوعي وخصائصها التاريخية والاجتماعية . ان واقعية روب غرييه وساروت تعني خلق عالم مماثل ببناه لبنية الواقع الاجتماعي الذي يولد فيه العمل الادبي .

ويختتم غولدمان كتابه بمقال بعنوان « المنهج التركيبي في تاريخ الادب » . ويعتبر غولدمان الابداع الفكري كفرع مميز بدون شك ، لكن له نفس الطبيعة التي تملكها الفروع الاخرى المعبرة عن السلوك البشري. لذا فالابداع الفكري خاضع لنفس القوانين التي تخضع لها هذه الاخيرة ، وهو صعب الدراسة علميا . الا ان التركيبية تحاول ان تتخطى تلك الصعوبات . ولنر معا أهم مبادىء هذا المنهج العلمي في النقد . نلاحظ ان ثمة تعارضا بين مدرستين كبيرتين في النقد الادبي ، تتمم احداهما الاخرى . هاتان المدرستان اللتان ترتبطان بهذا المنهج هما : الماركسية والتحليل النفسي . وتنطلق التركيبية من الافتراض التالي : ان كل سلوك بشري هو محاولة في اعطاء جواب ذي معنى على موقف خاص ، ويميل هذا السلوك الى ايجاد تعادل بين الفاعل وموضوع الفعل في عالم مزدوج . فما هو في الحقيقة مسبب التفكير والفعل ؟ ثلاثة اجوبة ممكنة : الفرد ، الجماعة ، الجماعة المنتظمة اجتماعيا . لكن لماذا نربط العمل بالجماعة المنتظمة اجتماعيا بدلا من ربطه مباشرة بالكاتب الذي الفه ؟ اننا لا ننكر اهمية الكاتب . لكن كيف نستطيع ان نتجاهل فنومنولوجيا وتجريبيا حقيقة الوسط الاجتماعي ؟ فالوسط الاجتماعي هو محدد خارجي ومتماز حقيقته الخاصة باثرها السببي وفعلها في تربية الفرد الفكرية . فالدراسات البسيكولوجية لم تتمكن ان توضح كيف كتب راسين مجموع مؤلفاته الدراسية والتراجيدية أو تشرح لماذا لم يكتب مثلا مؤلفات كورنيل او موليير . هذا يعني ان علم الحياة الشخصية عاجز وحده ان يبرهن الظاهرة الادبية موضحا اسبابها .

فالعلم كما نعرف هو مجهود خاص لاكتشاف علاقات « ضرورية بين الظواهر ، واما المحاولات القاصدة اكتشاف علاقات بين الاعمال الفكرية والجماعات المنتظمة اجتماعيا – المعتبرة كقوى خلاقة – فهي حسب معرفتنا العلمية الراهنة اهم من كل المحاولات السابقة التي كانت تعتبر ان الفرد هو الخالق الحقيقي . لذا لا بد لعالم الاجتماع ان ينسى اهمية الفرد النسبية وعليه ان يتابع ابحاثه في دراسة بنى المجتمع – اي مجموع العلاقات الاجتماعية المعقدة . وعلم الاجتماع الادبي سيتجه نحو دراسة محتوى العمل الادبي آخذا بعين الاعتبار وحدة هذا الاخير . ان المنهج التركيبي قد مثل تغييرا كليا في اتجاه البحث ، فافتراضه الرئيسي كان : الاخذ بعين الاعتبار الميزة الجماعية للخلق الادبي ، وان هذه الميزة تنبع من « تركيبات » عالم العمل ذاته ، وان هذه التركيبات موافقة لتركيبات بعض الجماعات الفكرية او على علاقة فكرية واضحة معها . بينما كان يعتقد سابقا أن الكاتب له حريته الكاملة في الخلق والتخيل منفصلا عن المحددات الاجتماعية . وهذا ما يفصل جوهريا علم الاجتماع الذي يدرس محتوى المؤلف عن علم الاجتماع التركيبي . وغاية عالم الاجتماع هي الشرح والفهم اللذان يشكلان وجها واحدا لعملية واحدة. ولا بد اخيرا من دراسة وظيفة الخلق الادبي واثرها في الحياة الاجتماعية.

ان التحليل النفسي ، كما قدمه فرويد على الاقل ، غير مقنع وغير كاف علميا . فشروح فرويد لا تأخذ بعين الاعتبار ابعاد الزمن وخاصة المستقبل . وفرويد يتجاهل تماما قوى التعادل الوضعية التي تؤثر على البنية البشرية والفردية والجماعية . فالشرح يعني في لغته العودة الى الطفولة والقوى الغريزية المكبوتة ... ويتجاهل الدور الايجابي الذي يستطيع ان يلعبه الوعي وعلاقة الانسان بالواقع . واما الفرد فهو عند فرويد « فاعل » مطلق وكل الاشخاص الاخرين ما هم سوى اغراض لاشباعه او لحرمانه .

اما النظرية الماركسية فهي بدون شك متقدمة جدا على النظرية الفرويدية ، أذ انها لا تدخل المستقبل كعامل تعليلي فقط بل كمعنى فردي للاحداث الاجتماعية الى جانب معناها الجماعي . وهذا يعني ان المعنى الفلسفي لكتاب باسكال « افكار » لا يتضح الا بواسطة تحليل تاريخي – اجتماعي (علميا) . اما الدراسات البسيكولوجية فتستطيع ان تساعدنا على فهم النقطة التالية في كتابات باسكال : فهي قادرة ان توضح لماذا استطاع باسكال كفرد ما بين مئات الجانسينيين ان يعبر عن رؤية تراجيدية على الصعيد الادبي والفلسفي ، دون ان تضيف اي شيء الى مشكلة : طبيعة ومحتوى ومعنى هذه الرؤية التراجيدية .

تلك هي اهم النقاط التي عالجها كتاب غولدمان . وهذا الكتاب هو مجموع نتائج واقتراحات لذا فهو ذو قيمة اخبارية قبل كل شيء وله قيمة علمية افتراضية . لذا فهذا الكتاب دعوة للمشاركة في طرح وفهم مشاكل الادب في مجال جديد هو مجال علم الاجتماع الادبي التركيبي والوظيفي والتاريخي . اذ كل هذا يتمم بعضه البعض ويصلح اخطاء كل باحث على حدة . فالشرح السببي لا يتنافى مع الشرح التاريخي او النفسي او الاجتماعي . فهل نجح غولدمان في محاولته هذه ام اخفق ؟ نحن نرى ان الاجابة في هذه المرحلة من البحث مبكرة جدا . الا ان عمله رصين جيد وعميق – والعمق لا ينبع هنا من ايراد اشياء كثيرة بل من الالحاح على ما هو جوهري ومحرك في دراسة الادب . فبانتظار تتمة هذه الدراسة نرجو أن تكون هذه الدعوة موجهة ايضا للباحث العربي الذي عليه ان يقيم تراثه – وعلى الاقل ان يرى هذا الركام من الكتب الحديثة والمعاصرة التي تحتاج الى درس وتوضيح وتقييم حتى نتمكن فعلا ان نعرف اين صرنا في مغامراتنا الفكرية وما هي العلاقة القائمة بين ادبنا وتطورنا الاجتماعي ، الثوري خاصة . وهذا ما سنحاول ان نتبين بعض نقاطه في القسم الثاني من هذه الدراسة : « مع الثورة » .

جامعة ليون (فرنسا)

خليل احمد خليل

مواقف

سلسلة دراسات رائعة بقلم :

جان بول سارتر

في ست حلقات صدرت كلها

١ – الادب الملتزم	٥٠٠	ق.ل
٢ – ادباء معاصرون	٤٠٠	ق.ل
٣ – جمهورية الصمت	٤٠٠	ق.ل
٤ – قضايا الماركسية	٤٠٠	ق.ل
٥ – المادية والثورة	٤٠٠	ق.ل
٦ – جمهورية الصمت	٣٥٠	ق.ل

منشورات دار الاداب